مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

مراثي الحيوانات المستأنسة في الشعر العباسي

The lamentation of Domesticated animal in Abbasid poetry

د. عزوزي عبد الصمد*، المركز الجامعي مغنية/ الجزائر abdessamad27@ymail.com

تاريخ المقال
الإرسال:2021-11-01 القبول:2022-04-09 النشر:2022-05-15

ملخص البحث

تعدّدت أنواع الرثاء في الشعر العربي؛ فمنها ما اختصّ بالحكام والملوك والقادة، ومنها ما اختصّ بالأقارب كالزوجة والأبناء والإخوة. ومنها ما اختص بالأدباء والفقهاء. ولم يبق الرثاء متمحورا حول الإنسان فقط، بل ظهر نوع آخر من الرثاء عند العرب هو رثاء المدن والبلدان والممالك، هذا النّوع عرف انتشارا واسعا بعد الحوادث العظيمة التي مرّ بها العرب كفقد الأندلس، وغزو المغول لبغداد. وقد تجاوز الشعراء في العصر العباسي هذه الأنواع إلى رثاء الحيوان المستأنس والطيور. هذا ما يدفعنا إلى طرح مجموعة من التساؤلات. ما الذي دفع الشعراء إلى رثاء الحيوان؟ ولماذا اتّخذ الشعراء العباسيون الحيوان المستأنس موضوعا شعريا؟ وهل كان ذلك تعبيرا عن موقف معيّن من الحياة والموت؟ أم أنّه مجرّد بذخ فكري؟

هي أسئلة حاولنا الإجابة عن بعض منها في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية

الكلمات المفتاحية: مراثي – الشعر العباسي- الحيوان- المستأنس.

Abstract

There are many types of lamentations in Arabic poetry, including those that specialize in rulers, kings and leaders, and some that concern relatives such as wives, sons and brothers. Some of them are specialized in writers and jurists. Lamentation remained not only about man, but

Keywords

Lamenting - Abbasid poetry - animal - domesticated -.

* المؤلف المرسل

another kind of lamentation among the Arabs was the lamentation of cities, countries and kingdoms, which was widely known after the great incidents of the Arabs, such as the loss of Andalusia, and the Mongol invasion of Baghdad. Poets in the Abbasid era went beyond these species to the lamentation of domesticated animals and birds. This is why we are asking a range of questions. What led poets to lament the animal? Why did Abbasid poets take the domesticated animal as a poetic theme? Was that an expression of a particular attitude to life and death? Or is it just intellectual extravagance? These are questions we tried to answer some of them in this article.

1. مقدمة:

الرثاء هو مدح الميت، و الثّناءُ عليه، وتعداد محاسنه. وتدور القصيدة الرّثائية عادة على الحزن و البكاء على الميّت والدُّعاء له، والدعوة إلى التصبّر. وقد عرف العرب شعر الرِّثاء وأجَادوا فيه، فقد بَكى الشُّعراء أحبَّاءَهم الذين رحلوا عن الدُّنيا ولا زالوا يفعلون، فشعر الرثاء – غالبا- هو تعبير حقيقي عن أحاسيس صادقة، صادرة عن قلب حزين مملوء باللوعة والحسرات، فما كان في الأهل والأقارب لا تشوبه الصّنعة والتكلّف. ومن يطلع على دواوين الشّعر العربي يجدها تحتفظ لنا بتراث ضخم من قصائد الرثاء.

وقد ظهرت في العصر العباسي صنوف من الرثاء لم يعرفها الشعر من قبل، ولعلّ أبرزها رثاء الطير والحيوانات المستأنسة، فالحياة الجديدة التي كان يعيشها الشعراء في هذا العصر، جعلتهم يتفننون في فن الرثاء "..والحقيقة أنّ شعراء القرن الثاني تفنّنوا في الرثاء تفنّنا لم يعرفه الشّعر من قبل، واتّجهوا به وجهات جديدة فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية وحسية". (هدارة، 1963، صفحة 441)

فقد احتل الحيوان عموما مكانة هامّة عند العرب، فاستأنسوه في حلّهم، واتّخذوه رفيقا في ترحالهم، وقد ظهرت في العصر العباسي أسباب عديدة لاستئناس الطيور والحيوانات، منها أسباب تتّصل بكسب الرزق وقضاء أمور الحياة اليومية، ومنها أسباب طارئة على العصر تتّصل بحياة الرفاهية التي كان يعيشها العرب، كاهتمامهم بوسائل الترفيه والتسلية، فمال نفر من الأدباء والشعراء إلى جلب أنواع معينة من الحيوانات يأنسون بها كالطيور والقطط والكلاب، "...يهشون لها، ويعطفون عليها، ويقضون الساعات الطويلة معها...". (المنجد، 1945، صفحة 21)

2. <u>صورة الحيوان في الشعر العربي</u>:

لا تكاد تخلو قصيدة عربية من ذكر الحيوان، فالشاعر العربي حين يصف حيوانا كالناقة أو الفرس –مثلا- لا يصفه من أجل الذكر فقط، بل يصفه لأنّه يعبر من خلاله عن ذاته، وعن رؤيته للحياة، فالفرس –مثلا- بالإضافة إلى كونه جزء من ممتلكات الشاعر، فهو مؤنسه والقريب من نفسه خصوصا في رحلاته الطويلة للصيد أو للترحال، وهو وسيلته للنجاة في ساحة الوغى إذا حمي الوطيس، ولعل أقرب صورة من ذلك ما قاله عنترة بن شداد في وصف فرسه: (الشنقيطي، 2012، صفحة 87)

هَلاَّ سأَلْتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ

إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِمَا لَم تَعْلَمِي

إِذْ لا أَزَالُ عَلَى رِحَالةِ سَابِحٍ

نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ

طَوْراً يُجَرَّدُ للطَّعانِ وتَارَةً

يَأْوِي إلى حَصِدِ القِسِيِّ عَرَمْرِمِ

مازِلْتُ أَرْمِيهُمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ

ولِبانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالدَّمِ

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلِبانِهِ

وشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ

لو كانَ يَدْرِي مَا المُحاوَرَةُ اشْتَكَى

وَ لَكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمِي

وما قاله المتلمس جرير بن عبد العزى الضبعي في وصف ناقته: (الضبي ا.، 1998، صفحة 32)

حَنَّت قَلُوصِي بِها وَاللَيلُ مُطَّرِقٌ

بَعْدَ الهُدُوِّ وَشَاقَتْهَا النَواقيسُ

مَعْقُولَةٌ يَنظُرُ التَّشْرِيقَ راكِبُها

كَأَنَّها مِن هَوىً لِلرَّملِ مَسْلُوسُ

وَقَدْ أَلاحَ سُهَيْلٌ بَعْدَمَا هَجَعُوا

كَأَنَّهُ ضَرَمٌ بِالكَفِّ مَقْبُوسُ

أَنَّى طَرِبْتِ وَلَم تُلْحِي عَلى طَرَبٍ

وَدُونَ إِلْفِكِ أَمْرَاتٌ أَمَالِيسُ

حَنَّتْ إِلى نَخْلَةَ القُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا

بَسلٌ عَلَيْكِ أَلا تِلكَ الدَهارِيسُ

فهذا التصوير يدلّ على العلاقة الوطيدة التي كانت تجمع بين الشّاعر وفرسه، أو الشّاعر وناقته، " ويكلّم الشّعراء الجاهليون النّاقة وتكلّمهم، ويكلّم كلّ الشّعراء الحيوان والنبات واللّيل والطّير، وليس كلامهم خبالاً، بل رفعا لما لا يَعْقِل، وجعلها رمزاً لمعنى ذاتي". (نصرت، 1976، صفحة 169)

وقد اتّخذ الشّاعر الحيوان أنيساً لوحشته حين أهمله أهله وأقرباؤه، فالشَّنْفرى –مثلا- الذي أصبح منبوذا من قومه وعشيرته تمكّن من العثور على أنيس لوحدته في عالم الحيوان، حيث قال: (الشنتمري، 2001، صفحة 174)

وَلِي دُونَكُم أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ

وأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

هُمُ الرَّهْطُ لا مُسْتَوْدَعُ السِرِّ شَائِعٌ

لَدَيْهِم ولا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

إذاً، فقد كان للحيوان منزلة كبيرة عند العرب، حتّى بلغ الأمر ببعضهم إلى تفضيل فرسه على زوجته، فها هو حاجب بن حبيب الأسدي يُعدّد خصال فرسه، مخاطبا زوجته حين طلبت منه بيعه بعد أن أصاب القوم قحط شديد وزادت أثمان الخيول: (الضبي ا.، 1998، الصفحات 59-60)

بَاتَتْ تَلُومُ علَى ثادِقٍ

لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصْيانُهَا

أَلاَ إِنَّ نَجْوَاكِ فِي ثادِقٍ

سَواءٌ عَلَيَّ وإِعْلاَنُهَا

وقَالَتْ: أَغِثْنَا بِهِ إِنَّنِي

أَرَى الخَيْلَ قَدْ ثَابَ أَثْمانُهَا

فَقُلْتُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ

كَرِيمُ المَكَبَّة مِبْدَانُهَا

كُمَيْتٌ أُمِرَّ عَلَى زُفْرَةٍ

طَوِيلُ القَوَائِمِ عُرْيانُهَا

طَوِيلُ العِنَان قَلِيلُ العِثَا

ـرِ خَاظِي الطَّرِيقَةِ رَيَّانُهَا

وقُلْتُ: أَلَم تَعْلَمِي أَنَّهُ

جَمِيلُ الطُّلاَلَةِ حُسَّانُهَا

3. رثاء الحيوان في شعر ما قبل العصر العباسي:

يكاد يخلو الشّعر الجاهلي والأموي من قصائد مستقلة في رثاء الحيوان، فجلّ ما وصلنا هو تصوير لحالة الموت فقط، من ذلك ما نجده في المشهد الذي دار في معلقة لبيد بن ربيعة بين البقرة الوحشية والكلاب، حيث قال:

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ

خَذَلَتْ وهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا

خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ

عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وبُغَامُهَا

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ

غُبْسٌ كَوَاسِبُ لا يُمَنُّ طَعَامُهَا

صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا

إِنَّ المَنَايَا لا تَطِيْشُ سِهَامُهَا

فالشاعر في هذه المقطوعة يقول إنّ ناقته الموصوفة بالخنس- أي تأخر أرنبة الأنف- تشبه بقرة وحشية افترس السبع ولدها، حين غفلت عنه وذهبت ترعى مع صواحبها، ثم افتقدته فطفقت تبحث عنه، ولما وجدته كان ملقى على الأرض تنهش الكلاب أشلاءه. فهو هنا يصف صراع الحي مع الموت الذي إذا طارت سهامه لا تخطئ.

ويواصل الشّاعر بعد هذا الوصف قائلا: (الزَّوْزَني، 2002 ، صفحة 86 وما بعدها)

بَاتَتْ وأَسْبَلَ واكِفٌ مِنْ دِيْمَةٍ

يُرْوَى الخَمَائِلَ دَائِماً تَسْجَامُهَا

حَتَّى إِذَا حَسَرَ الظَّلامُ وأَسْفَرَتْ

بَكَرَتْ تَزِلُّ عَنِ الثَّرَى أَزْلامُهَا

حَتَّى إِذَا يِئِسَ الرُّمَاةُ وأَرْسَلُوا

غُضْفاً دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا

فَلَحِقْنَ واعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ

كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وتَمَامُهَا

لِتَذُودَهُنَّ وأَيْقَنَتْ إِنْ لَمْ تَذُدْ

أَنْ قَدْ أَحَمَّ مَعَ الحُتُوفِ حِمَامُهَا

فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابٍ فَضُرِّجَتْ

بِدَمٍ وغُودِرَ فِي المَكَرِّ سُـــخَامُهَا

فالبقرة باتت بعد أن فقدت ولدها تحت المطر المستديم، مختبئة في جوف شجرة، وحين انحسر الظلام استيقظت تزيل آثار الرمال عن جسمها. ولم يكفها مصيبة أنّها فقدت وليدها، بل طاردتها كلاب الصيد لكنّها تمكّنت من قتل اثنين منهم. وهنا يتوقف لبيد فجأة عن سرد بقية الأحداث دون أن يُعِّرفنا على نهاية المعركة، كأنّه ترك لنا أن نتخيّل بقية المشهد، وهذا منطقي لأنّ صراع الأحياء ليست له نهاية، والدوائر تدور على الجميع.

فوصف لبيد للحيوان في معلقته، هو تعبير عن فلسفة الموت والفناء، فلو نجا أحد من الموت لكان وليد هذه البقرة الصغير البريء أولى بالنّجاة.

أمّا الرثاء الحقيقي في شعر ما قبل العصر العباسي فهو نادر جدّا، لا يتعدى أبياتا معدودة. فالشّاعر الجاهلي –مثلا- إذا عمد إلى رثاء الحيوان، سواء كان فرسا أم كلبا، فهو يفعل ذلك بدافع الواجب الذي تمليه عليه علاقته بهذا الحيوان، فكأنّه اعتراف منه بالجميل اتّجاهه، فرثاء الحيوان عند العرب رثاء متميّز، "لأنّنا نحسّ أنّ وراءه عاطفة رفق حقيقي نحو الحيوانات خاصّة الفرس، فأنزلوه مكانة عظيمة في حياتهم". (جمعة، 1998، صفحة 102)

ولا يكاد يتعدّى رثاء الحيوان في الشعر الجاهلي المقطوعة الصغيرة والبيت والبيتين، من ذلك ما قاله السليك بن السلكة في رثاء فرسه: (المبرد، 1937، الصفحات 790-791)

كَأَنَّ قَوائِمَ النَحامِ لَمّا

تَحَمَّل صُحْبَتي أُصُلاً مَحارُ

عَلَى قَرماءَ عَالِيَةٌ شَواهُ

كَأَنَّ بَياضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ

وَمَا يُدْرِيكَ مَا فَقْرِي إِلَيهِ

إِذا مَا القَوْمُ وَلَّوا أَو أَغَارُوا

فالشّاعر يذكر فرسه الذي فقده وقت الشدّة، حين يفرّ القوم من ساحة الوغى، إنّه يتحسّر على فراقه فقد كان رفيقه الذي يلازمه أينما توجّه وفي أيّ مكان حلّ.

ونجد للشاعر "عامل بن الطفيل" بيتا يتيما في رثاء فرس له: (ديوان عامر بن طفيل، 1979، صفحة 86)

ونِعْمَ أَخُو الصُّعْلُوكِ أَمْسِ تَرَكْتُهُ

بِتَضْرُعَ يَمْرِي بِاليَدَيْنِ ويَعْسِفُ

فقد عُقِر فرسه الذي وصفه بأخي الصعلوك، وقد تركه يمري بيديه أي يحركهما بطريقة عشوائية مضطربة ، ترجف حنجرته من النفس.

4. **رثاء الحيوان في الشعر العباسي**:

لعلّ الثراء والترف الذي عرفه الشاعر العباسي كان له إسهام كبير في التفاته إلى رثاء الحيوان،" ولا ندري هل السبب في وجود هذا الرثاء هو الجو المترف المنعّم الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء، والذي دعاهم إلى التعبير عن مثل هذه المواقف، أو أنّه أثر من آثار الرقي الحضاري الذي أوجد التعاطف والمودة بين الإنسان والحيوان بعد أن كثُر اقتناؤه في البيوت، وربّما صحّ الأمران لتعليل نشأة هذا اللون من الرثاء". (الموافي، 1983، صفحة 110)

فلم يقصر الشعراء رثاءهم على الإنسان وحده، إنّما شاركه في هذا الحيوانات المستأنسة، فوجدنا الشعراء في العصر العباسي يحزنون على موت الكلاب والقطط والطيور التي أحبّوها وألفوها، فعاملوها معاملة البشر بعد موتها، فنظموا فيها قصائد رثاء رائعة لعلّهم يجدون في ذلك سلوّاً عن حزنهم وأساهم، فجاءت أشعارهم مليئة بالعواطف الإنسانية، ممزوجة بالحزن والأسى.ففي العصر العباسي " قصائد وأشعار كثيرة ذات صبغة إنسانية نادرة قلّما نجد لها نظيرا في أشعار الشعراء، لما اتّسمت به من صدق في الشّعور، ورقة في العواطف، وبراعة في التعبير، وطرافة في الموضوع". (ناول، 1992، صفحة 112 وما بعدها).

ويرى الباحث عبد الرحيم السوداني أن هذا النوع الجديد من الرثاء " أملته ظروف العصر العباسي الحضارية، والترف الفكري ورقة الشعور الذي أفرزته الحضارة الجديدة". (سوداني، 1999، صفحة 20)

ولو استقرأنا النصوص الرثائية في الحيوان في العصر العباسي، لطالعنا أبو نواس بأرجوزته في كلبه "خلاّب" الذي لدغته أفعى، بثّ فيها حزنه الشديد لفقده قائلا: (الشنطي، 1992، صفحة 125)

يا بُؤسَ كَلبي سَيِّدِ الكِلابِ

قَدْ كَانَ أَعْنَانِي عَنِ العُقابِ

وَكَانَ قَدْ أَجْزَى عَنِ القَصّابِ

وَعَنْ شِراءِ الجَلَبِ الجَلّابِ

يا عَينُ جُودِي لِي عَلى خَلّابِ

مَنْ لِلظِّبَاءِ العُفْرِ وَالذِّئَابِ

وَكُلُّ صَقْرٍ طَالِعٍ وَثَّابِ

يَخْتَطِفُ القُطّانَ في الرَّوَابِي

كَالبَرْقِ بَينَ النَّجْمِ وَالسَّحَابِ

كَمْ مِنْ غَزالٍ لاَحِقِ الأَقْرَابِ

ذِي جِيئَةٍ صَعْبٍ وَذِي ذَهَابِ

أَشْبَعَني مِنْهُ مِنَ الكَبّابِ

خَرَجْتُ وَالدُّنْيَا إِلَى تَبَابِ

بِهِ وَكَانَ عِدَّتي وَنَابي

أَصْفَرُ قَدْ خُرِّجَ بِالمُلاَّبِ

كَأَنَّما يُدْهَنُ بِالزِّرْيَابِ

فَبَيْنَما نَحْنُ بِهِ في الغَابِ

إِذْ بَرَزَتْ كَالِحَةُ الأَنْيَابِ

رَقْشَاءُ جَرْدَاءُ مِنَ الثِّيابِ

كَأَنَّما تُبْصِرُ مِنْ نِقَابِ

فَعَلِقَتْ عُرْقُوبَهُ بِنابِ

لَمْ تَرْعَ لي حَقّاً وَلَم تُحابِ

فَخَرَّ وَانْصَاعَتْ بِلا ارْتِيَابِ

كَأَنَّما تَنْفُخُ مِنْ جِرَابِ

لا أُبْتُ إِنْ أُبْتِ بِلا عِقَابِ

حَتّى تَذُوقِي أَوْجَعَ العَذَابِ

فالملاحظ في هذه المقطوعة أنّ أبا نواس رثى كلبه بالمعاني التي يُرثى بها الإنسان عادة، فعبارة (يا عين جودي) لا تكاد تخرج عن نطاق رثاء الخنساء لأخيها معاوية في قولها: (الطباع، 2016، صفحة 106)

يا عَينِ جُودِي بِالدُّمُوعِ

المُسْتَهِلّاتِ السَوَاجِمِ

وَابكي مُعاوِيَةَ الفَتَى

وَابْنَ الخَضَارِمَةِ القُمَاقِمِ

فجاء رثاء أبي نواس بأسلوب قصصي جميل، صوّر لنا بواسطته قصّة مقتل كلبه "خلاّب" بلدغة حيّة رقشاء، فهو يُقسم أنّه لن يستريح حتّى ينتقم منها شرّ انتقام.

فهذا النّوع من الأبيات عدّه النقاد بابا من أبواب التّجديد في شعر الرثاء، " فقد ظهرت في هذا الباب آفاق معنويّة أخرى جديدة، حيث رثى الشعراء الحيوان الأليف كالكلاب والقطط، وهذا الضرب من الرثاء يكشف عن معنى إنساني حضاري، حيث تتولد العاطفة التي تربط بين الإنسان وهذا النوع من الحيوان... حتى إن فقده للحيوان الأليف لديه يبعث في نفسه الأسى والحزن ". (علي، 2008، صفحة 14)

وقد برع في رثاء الحيوان "أبو محمد القاسم بن يوسف" (ت: 220هـ)، فكانت له قصائد بديعة في رثاء الطير والحيوان، (أحمد، 2019) من ذلك قصيدة طويلة له في رثاء هرّة سماها "نعمة"، اختطفها الموت فتركت وراءها قططا صغيرة يتيمة، يقول فيها وقد أوردتها كاملة رغم طولها لغرابتها:

أَلَا قُلْ لمخَّةَ أو مَارِدَهْ

تَعَزَّوْا عن الهرَّةِ الصَّائِدَهْ

عَسَى أَنْ تَدُورَ صُرُوفُ الزَّمانِ

بِحُسْنِ الخِلاَفَةِ والفَائِدَهْ

وإِنْ رَحَلَتْ عَنْكُمُ نِعمةٌ

فَفِي غَدِكُمْ نِعْمَةٌ وَافِدَهْ

يَقُولُونَ كَانَتْ لَنَا هِرَّةٌ

مُرَبَّبَةٌ عِنْدَنا تَالِدَهْ

لَهَا قَنَصٌ كاقْتِنَاصِ الفُهُو

ـدِ واثِبةٌ فِيهِ أو لاَبِدَهْ

ترَى الفَأْرَ مِنْ خَوْفِها خُشَّعًا

جَوَاحِرَ وهْيَ لَهُمْ رَاصِدَهْ

فَإِنْ أَطْلَعَتْ رَأْسَها فَأْرَةٌ

فلَيْسَتْ إِلَى جُحْرِها عَائِدَهْ

كَأَنَّ المَنِيَّةَ في كَفِّهَا

إذَا أقْبَلَتْ نَحْوَها قَاصِدَهْ وكَانَتْ بِصُحْبَتِنا حَامِدَهْ

ورَقْطَاءَ تَمْشِي عَلَى بَطْنِها فَعَنَّ لَهَا عَارِضٌ للرَّدَى

وسَوْدَاءَ شَامِذَة عَاقِدَهْ فَأَمْسَتْ بتُرْبَتِها هامِدَهْ

ودَبَّابَة مِن ذَوَاتِ القُرُو

نِ حَسْرَاء مُفْسِدَةٌ فَاسِدَهْ

تُقَبِّضُهُنَّ يدٌ ثَقْفَةٌ

ولَسْتَ تَرَى عِنْدَها جَاسِدَهْ

وحَارِسَةُ الدَّارِ كرَّارةٌ

عَنِ القِرْنِ مَطْرُودَةٌ طارِدَهْ

وصَيَّاحَةٌ مِن ظُهورِ السُّطُو

حِ إرْنان مُعْولةٍ فَاقِدَهْ

ولَمْ تَكُ إذْ رَقَدَ الرَّاقِدَا

تُ في ظُلَمِ اللَّيْلِ بالرَّاقدَهْ

إذَا مَا دَجَا لَيْلُهَا خِلْتَها

عَلَى الرُّصْفِ نَازِلةً صَاعِدَهْ

وإنْ أَصْبَحَتْ فهْيَ جوَّالةٌ

كَغَائِبَةٍ يَوْمَها شَاهِدَهْ

كَخُدَّامِ صِدْقٍ لأَبْنَائِهَا

فَقَائِمَةٌ تَارَةً قَاعِدَهْ

وتَحْضُرُ عِنْد حُضُورِ الطَّعامِ

فَتُلْقَى لَهَا كِسَرُ المَائِدَهْ

وتَشْهَدُنا عِنْدَ وَقْتِ الصَّلا

ةِ في اللَّيْلَةِ القرَّةِ البَارِدَهْ

وكُنَّا بِصُحْبَتِها حَامِدِينَ

وصف الشاعر لنا هرته التي كانت تؤنس وحدته، فهو متحسّر على فراقها، فهي التي كانت تحرس داره، وهي العين الساهرة التي لا تنام، قنّاصة كالفهد كلما أطلّ فأر من جحره برأسه لا يعود إليه حيا، فقد كان فرحا بها، و كانت هي فرحة به إلى أن عنّ لها الموت فقضى عليها.

ثمّ يصف كيف أصبح بيته مرتعا للفئران، تأكل ما وفّره من مؤونة، قد خلا لها الجوّ بعد موت هذه الهرّة، فهي تعبث بمحتويات بيته، فلا رقيب ولا حارس يدفع أذاها. وفي ذلك قال: (الصولي، 1934، الصفحات 172-173)

وأصْبَحَتِ الفأرُ في دُورِنا

أَوَامِنَ صَادِرةً وارِدَهْ

تُخَرِّبُ حِيطَانَنَا بالنُّقُوبِ

وتَقْرِضُ أثْوَابَنَا جَاهِدَهْ

وتأكُلُ مِنْ خَزَنِ الخازِناتِ

إذَا هَجَدَتْ أعينٌ هَاجِدَهْ

وحَرْفَ الرَّغيفِ وفَضْلَ الصَّوِيقِ

وما قِطَعُ الجُبْنِ بالكَاسِدَهْ

وتَشْرَبُ دُهْنَ قَواريرِنَا

بِأَذْنَابِها حِيَلٌ الكَائِدَهْ

وتَسْرِقُ زَيْتَ مَصَابِيحِنَا

كَمَا تَسْرِقُ اللِّصَّةُ المَارِدَهْ

لَها في السُّقوفِ كَعَدْوِ الجِيَا

دِ جاءَتْ لِغَايَتِها عامدَهْ

تَوالَدْنَ حَتَّى مَلأْنَ البُيُوتَ

وكُنَّ أقلَّ مِنَ الوَاحِدَهْ

فَلا زَرَعَ اللهُ مَوْلُودَهَا

ولاَ بَارَكَ اللهُ في الوَالِدَهْ

ولابن العلاف النهرواني (ابن خلكان، صفحة 139/ ج1) قصيدة مشهورة في رثاء هرّ، تُعدّ من روائع الشّعر العربي، وقد ذكرت بعض المصادر أنّه كان يملك هرّاً " يألف به كان يدخل برج الحمام التي لجيرانه يأكل أفراخها، وكثُر ذلك منه فأمسكوه وذبحوه". (ابن خلكان، صفحة 138/ ج1) ومن أبيات هذه القصيدة: (النهرواني، 1974، الصفحات 32-38)

يا هِرُّ فَارَقْتَنا وَلَمْ تعُدِ

وكُنْتَ عِنْدِي بِمَنْزِل الوَلَدِ

فَكَيْفَ نَنْفَكُّ عَنْ هَوَاكَ وقَدْ

كُنْتَ لنَا عُدَّةَ العُدَدِ

تَطْرُدُ عَنّا الأَذَى وتَحْرُسُنا

بالغَيْبِ مِنْ حَيَّةٍ ومِنْ جُرَدِ

وتُخْرِجُ الفَأْرَ مِنْ مَكَامِنِها

ما بَيْنَ مَفْتُوحِهَا إلى السُّدَدِ

يَلْقَاكَ في البَيْتِ مِنْهمُ مددٌ

وأَنْتَ تَلْقَاهُمُ بلا مَدَدِ

لاَ تَرْهَبِ الصَّيْف عِنْد هَاجِرَةٍ

ولا تَهَابُ الشِّتَاءَ في الجمَدِ

حَتَّى اعْتَقَدْتَ الأَذَى لجِيرَتِنَا

ولَمْ تَكُنْ للأَذَى بمُعْتقِدِ

وحُمْتَ حَوْلَ الرَّدَى بظُلْمِهِمُ

وَمنْ يَحُمْ حَوْلَ حَوْضِه يَرِدِ

إلى أن يقول معبّرا عن خوفه وخشيته:

وكَان قَلْبي عَلَيْكَ مُرْتَعِداً

وأَنْتَ تَنْسَابُ غَيْر مُرتَعِدِ

تَدْخُلُ بُرْجَ الحَمَامِ مُتَّئِداً

وتَبْلَغُ الفَرْخَ غَيْر مرَّئدِ

وتَطْرَحُ الرِّيشَ في الطَّرِيقِ لَهُمْ

وتَبْلَغُ اللَّحْمَ بَلْعَ مُزدَرِدِ

كَادُوكَ دَهْراً فَمَا وَقَعْتَ وكَمْ

أَفْلَتَّ مِنْ كَيْدِهِم ولَمْ تَكِدِ

صَادُوكَ غَيْظاً عَلَيْكَ وانْتَقَمُوا

مِنْكَ وزَادُوا ومَنْ يَصِدْ يُصَدِ

و يستمر ابن العلاّف يصور لنا طريقة قتله تصويرا فنيّا جميلا، فهو يجود بنفسه بعد أن لقُّوا

حول عنقه حبلا لخنقه، وقد توسّل الخلاص منهم فلم تنفعه أية حيلة:

فَلَمْ تَزَل للحَمَام مُرْتَصِداً

حَتَّى سُقِيتَ الحِمَام بالرَّصَدِ

لَمْ يَرْحَمُوا صَوْتَكَ الضَّعِيفَ كَما

لَم ترثِ مِنْها لِصَوْتِها الغَرِدِ

أَذَاقَكَ المَوْتَ رِبُّهُنَّ كَمَا

أذَقْتَ أَفْرَاخَهُ يَدًا بِيَدِ

كَأَنَّ حَبْلاً حَوَى بجَوْدتِهِ

جِيدَك للخَنْقِ كَان مِنْ مَسَدِ

كَأَنَّ عَيْنِي تَرَاكَ مُضْطَرباً

فِيهِ وفِي فِيكَ رَغْوَةُ الزَّبَدِ

وقَدْ طَلَبْتَ الخَلاَصَ مِنْه فَلَمْ

تَقْدِرْ عَلَى حِيلةٍ ولم تَجِدِ

فَجُدْتَ بالنَّفْسِ والبخيلُ بها

أَنْت وَمَنْ لَمْ يَجُدْ بها يَجُدِ

فَما سَمِعْنَا بِمِثْل مَوْتك إذْ

مُتَّ ولا مِثْل عَيْشِكَ النَّكِدِ

ثم يلوم الشاعر هرّه الذي جنى على نفسه نتيجة سوء صنيعه، ولنستمع إلى روعة الأداء الشعري:

يَا مَنْ لَذِيذُ الفِرَاخ أَوْقَعَهُ

وَيْحَكَ هَلاَّ قَنَعْتَ بالغُدّدِ؟

أَرَدْتَ أنْ تَأْكُلَ الفِراخَ ولا

يأْكُلُكَ الدَّهْرُ أكلَ مُضْطَهَدِ

لا بارَكَ اللهُ فِي الطَّعَام إذَا

كَانَ هَلاَكُ النُّفُوسِ في المِعَدِ

كَمْ دَخَلَتْ لُقْمَةٌ حَشَا شَرِهٍ

فأَخْرَجَتْ رُوحَهُ مِنَ الْجَسَدِ

قَدْ كُنْتَ في نِعْمَةٍ وفي دَعَةٍ

مِن العَزِيز المُهَيْمِن الصَّمَدِ

وكُنْتَ بَدَّدْتَ شَمْلَهُم زَمنًا

فَاجْتَمَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ البَدَدِ

فَلَمْ يُبَقّوا لَنا علَى سَبدٍ

فِي جَوْفِ أَبْيَاتِنَا ولا لَبَدِ

وفَتَّتُوا الخُبْزَ في السِّلاَل فَكَمْ

تَفَتَّت للْعِيَال مِنْ كَبِدِ

وَمَزَّقُوا مِنْ ثِيَابِنا جُدُداً

فَكُلَّنا في المصَائِبِ الجُدَد

مَنْ لَمْ يَمُتْ يَوْمَهُ يَمُتْ غَدَهُ

أو لاَ يَمُتْ في غَدٍ فَبَعْدَ غَدِ

وقد ذهب بعض مؤرخي الأدب إلى أنّ المقصود في هذه القصيدة لم يكن الهرّ بذاته، بل إنّ الشّاعر أراد الخليفة المقتول "عبد الله بن المعتز"(296- 247ه) (مروة، 1990، صفحة 39 وما بعدها)، فكنّى بالهرّ خوفا من الخليفة المقتدر بالله، يقول الأستاذ علي حسين البواب: " والذي أميل إليه أنّ القصيدة ليس المراد بها الهرّ حقيقة، وإنّما كنّى به عن شخص عزيز عليه، ولم يكن قادراً أن يرثيه، أو يعبّر عن ألمه لفراقه، وقد كان قاتله خليفة أو وزير". (البواب، 1997، صفحة 38 وما بعدها)

لكن الصفدي يُعَلِّق على مَنْ ذَهبَ هذا المذهب قائلا: " وأنا شديد التعجّب ممّن يزعم أنّ هذه القصيدة رُثِيَ بها غير هرّ". (الصفدي، نَكْت الهميان في نُكَت العُميان، 1911، صفحة 142) فالرأي عنده أنّ القصيدة في هرّ، لا شكّ في ذلك.

وقد نسج ابن العميد على منوال هذه القصيدة مقطوعة سمّاها (القصيدة الهرّية)، قال فيها: (الثعالبي، يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، 1983، صفحة 210/ ج3)

يَا هِرُّ فَارَقْتَنَا مُفَارقَة

عَمَّتْ جَمِيع النُّفُوسِ بالثَّكَلِ

يَا مَثَلاً سَائِرًا إذا ذُكِرَ الْحُسْنُ

تَرَكْتَ الحِسَان كالمثَلِ

وَقيل هَلْ تَفْتَدِيهِ إنْ قَبِلَ الدَّهْر

فِدَاءً فَقُلْت حَيْهَلِ

أَفْدِيهِ بالصَّفْوَة الْكِرَام مِن

الإخْوَان دُونَ الأَخْدَان والخَلَل

بَلْ بِمحْلِ الْكَرَى ومُغْتَلِج

الْفِكْر وَحَبِّ الْقُلُوب والمُقَـــــلِ

ولأبي الحسن التهامي (ت: 416ه) (الحنبلي، 2012، صفحة 355/ ج3) مقطوعة جميلة في رثاء هرّ له مات بعد سقوطه في بئر، قال فيها: (الجراوي، 1991، صفحة 1318/ ج2)

ولمَّا طواكَ البَيْنُ واجتاحَكَ الرَّدَى

بَكَيْناكَ ما لَمْ نبْك قَطٌّ علَى قِطِّ

لَقَد كُنْتَ أُنْسِي في الفِراشِ لِوحْدَتِي

إذَا بَعُدَتْ ذاتَ الوشاحَينِ وَالقُرطِ

وقَدْ كُنْتَ تَحْمِي ما يَدِبُّ مِنَ الأذَى

إليَّ بِدَانٍ مِنْكَ إذْ كانَ في شَحْطِ

وتَحْرُسُني كاللَّيْثِ يَحْرُسُ شِبْلَهُ

ويَقْتُلُ مَن عَادَاهُ باللَّطْمِ والخبْطِ

ولَوْ كُنتُ أَدْري أنَّ بِئْرًا يغُولُني

بِمَهْوَاكَ فِيه لاحْتَبَسْتُكَ بالرَّبْطِ

ولَكِنَّ أَيْدِي الحَادِثاتِ مُصِيبةٌ

إذَا أَرْسَلَتْ سَهْمَ المنيَّةِ لا تُخْطِي

فَمَنْ ذا الَّذي أَنْعَاهُ مِنْكَ وما الَّذي

أُعَدِّدُهُ مِن كَفِّكَ الباطِشِ السَّبْطِ

ومِنْ حُسْنِ لَوْنٍ في قَمِيصِكَ إنَّه

قلائدُكَ الدُّرّ المُنَظَّم في السِّمْطِ

وهلْ نَافِعِي أنِّي رَثَيْتُكَ بَعْدَما

رأيتُكَ تُوفِي لي وتَحْكُمُ بالقِسْطِ

فالشاعر يبكي قطّه الذي كان يُؤنس وحدته، ويدب عنه الأذى، ويتحسّر على فراقه المفاجئ، فلو كان يعرف

أنّ موته سيكون بسقوطه في بئر لقام بربطه وتقييده، لكنّ عوادي الزّمن رمته بسهامها قلم تُخطئه، وليس له حيلة إلاّ التصبّر والتجلّد.

وللبرذون (عاشور، 2000، صفحة 77)نصيب لا بأس به من رثاء الشّعراء في العصر العباسي، فقد حظي برذون أبي عيسى المنجّم (الصفدي، الوافي بالوفيات، 2000، صفحة 149/ ج 7)بشهرة واسعة بعد نفوقه، حيث نُظمت في رثاءه القصائد الطوال، عُرفت في كتب الأدب بـ(البرذونيات)، وقصّته أنّ الصاحب بن عباد أهدى لعيسى برذونا، وطالت صحبته لَهُ، وكان عزيزا على نفسه، ولما نفق حزن عليه حزنا شديدا، فأوعز الصاحب إِلَى ندماءه أَن يُعَزُّو أَبَا عِيسَى ويرثوا برذونه، فَقَالَ كل مِنْهُم قصيدة فريدة، وهي قصائد بديعة فنيّا، إلاّ أنّها تخلو من المشاعر الحقيقية، فيها شيء من الهزل، إذ نظمها أصحابها مجاملة للصاحب بن عباد، ونزولا عند طلبه، من هذه القصائد قصيدة لأبي الْقَاسِم الزَّعْفَرَانِي (الثعالبي، يتيمة الدهر، صفحة 402/ ج3) قال فيها (الْخَفِيف): (الثعالبي، يتيمة الدهر، الصفحات 253-269)

كُنْ مَدَى الدَّهْرِ فِي حِمَى النَّعْمَاءِ

مُسْتَهِينًا بحَادِثِ الأَرْزَاءِ

يَنْثَنِي الْخَطْبُ حِين يَلْقَاك عَن طَوْدٍ

شَدِيدِ الثَّبَاتِ للنَّكْبَاءِ

بِكَ يَا أَحْمَدُ بن مُوسَى التَّسَلّي

والتَّعَزِي عَن سَائِرِ الأَشْيَاء

ومُعَزّيكَ لَا يَزِيدُك خَبَرًا

بِالَّذِي قَدْ عَرَفْتَهُ بالعَزاء

قَدْ سَخَا طَرْفُك المفَارِقِ

بِالنَّفسِ وطَرْفِي مِنْ بَعْدِه بِالْمَاءِ

والتي فيها يقول مُشبّها برذون أبي عيسى بالبُراق:

كَمْ رَكِبْتَ الْبُرَاقَ مِنْهُ أَبَا عِيسَى

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ من الْأَنْبِيَاء

جَمَع الله شَمْلَ مُعْتَصِمٍ مِنْك

بحَبْلَيْ مَـــــــوَدَّة وَوَلَاء

وَفِي نفس البرذون قصيدة رثائية لأبي الْحسن بن عبد الْعَزِيز الْجِرْجَانِيّ (الذهبي، 2010، صفحة 239/ ج17) قال في أبيات منها:

ذهَبَ الطّرْفُ فَاحْتَسِبْ وتَصَبَّرْ

للرَّزَايَا فالحُرُّ مَن يَتَعَزَّى

رُبَّ يَوْم رَأَيْته بَين جُرْدٍ

تَتَقَفَّاه وَهُوَ يَجْمِزُ جَمْزَا

وَكَأن الْأَبْصَار تَعْلقُ مِنْهُ

بحُسَامٍ يَهُزُّ فِي الشَّمْس هَزَّا

وتَرَاهُ يُلاعِبُ الْعَيْن حَتَّى

تَحْسَبُ الْعَيْنُ أَنَّه يَتَهَزَّا

قَد رَثَيْنَا وَلم نُقَصِّرْ وبَالَغْنَا

مَا كُنْتَ أَنْت فِيهِ المُعَزَّى

وَمِن الْعَدْل أَنْ نُثَاب أَبَا عِيسَى

على قَدْرِ مَا فَعَلْنَا ونُجْزَى

وَمن القصائد التي قيلت في رثاء برذون أبي عيسى قصيدة أبي الْقَاسِم بن أبي الْعَلَاء (الأصفهاني أ.، 2013، صفحة 4):

عَزاءٌ وَإِنْ كَانَ الْمُصَاب جَلِيلًا

وصَبْرًا وَإِنْ لَمْ يُغْنِ عَنْك فَتِيلاَ

كَلَمْعِ الشِّهَاب خِفَّةً وتَوَقُّدًا

وجِذْعُ الحَضَار هَادِيًا ودَلِيلا

إِذَا قُلْتَ قِفْ أَبْصَرْتَهُ المَاء جَامِدًا

وَإِن قُلْتَ سِرْ مَاءٌ أصَابَ مَسِيلاَ

أَقَامَ عَلَيْهِ آل أَعْوَج مَأْتَمًا

وَأَعْلَى لَهُ آل الْوَجِيهِ عَوِيلاَ

فَفِي كُل إِصْطَبْل أَنِينٌ وَزَفْرَةٌ

تَرَدَّدُ فِيهِ بُكْرَة وَأَصِيلاَ

وَقَدْ أَنْصَفَتْهُ الْخَيْلُ مَا ذُقْنَ بَعْدَه

شَعِيرًا وَلَا تِبْنًا وَمُتْن غَلِيلاَ

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ شَتَّى صُرُوفُها

تُذِلُّ عَزِيزًا أَو تُعِزُّ ذَلِيلاَ

وَمن هذه القصائد كذلك، قصيدة لأبي الْحسن السلَامِي (فروخ، 1981، الصفحات 579-580):

أَلا نَفَقَ الْجَوَاد فَلَا عَجَاجٌ

تقُومُ بِهِ الحُرُوبُ وَلَا ضِرَامُ

وجَادَ بِنَفْسِهِ إِذا لَمْ يَجِدْ مَا

يَجُود بِهِ كَذَا الْخَيْلُ الْكِرَامُ

طَوَى الْحَدَثَان طَرْفُك يَا ابْن يَحْيى

فَطَرْفِي مَا يُعَاوِدُه الْمَنَامُ

أَلَمْ أُقْسِمْ عَلَيْك لتُخْبِرَنِي

أَمَحْمُولٌ علَى النَّعْشِ الْهُمَام

وَمنها كذلك قصيدة أبي مُحَمَّد الخازن (الثعالبي، يتيمة الدهر، صفحة 277/ج3):

لَو سَامَح الدَّهْر أَعْصمًا صَدَعَا

أَو كَاسِرًا فَوْقَ مَرْبَأ وَقَعَا

آهٍ عَلَى ذَلِك الْجَوَاد فَقَدْ

جَرَّع قَلبِي مِنْ كَأسِه جُرَعَا

آه عَلَيْهِ وَقَدْ سَرَى لمَعًا

فَرَاح غَيْضًا كَبَارِقٍ لمَعَا

لمْ يَكْبُ فِي جَرْيه إِذا كَبَتِ

الْخَيْلُ وَلَا قَالَ رَاكِبُوه لَعَا

وَلَا تَضِقْ بِالَّذِي فَقَدْتَ يَدًا

إِنَّ لنا فِي نَدَاهُ مُتَّسَعَا

فَاسْمَعْ قَرِيضًا مِنْ مُوجَعٍ جَزِعٍ

وَيرْحَمِ اللهُ صَاحِبًا سَمِعَا

وَمنها قصيدة أبي سعيد الرُّسْتمي (العمري، 1423 هـ، صفحة 294/ج15):

لَو أَعْتَب الدَّهْر مَن يُعَاتِبُهْ

ولاَنَ للعَاذِلِين جَانِبُهْ

لَهْفِي على ذَلِكَ الْجَواد وَهَلْ

يَفُكُّ رَهْنَ الْمَنُونِ نَادِبُهْ

يَرْتَدُّ بَيْن الضُّلُوع لي نَفَسٌ

مِنْ ذِكْرِه ضَاقَ بِي مَسَارِبُهْ

لَهْفِي علَى ذَلِك الْجَوَادِ مَضَى

فِي سَفَرٍ لَا يَؤُوب غَائِبُهْ

لَو عَرَفَ الْخَيْلُ مَن نَعَيْت لَهَا

ضَاقَتْ بِهَا فِي السَّرَى مَذَاهِبُهْ

صَبْرًا جَمِيلاً وَإِن سُلِبْتَ أَبَا

عِيسَى جَلِيلًا فالمَوْتُ سَالِبُهْ

دَامَ لَنَا فِي النَّعِيمِ مَا طَلَعَتْ

شَمْسٌ وجَلَى الظَّلامُ ثَاقِبُهْ

وقد نالت الطيور بأنواعها نصيبا من اهتمام الشّعراء، فقد قاموا باقتنائها وتربيتها، وليس غريبا إن فقدوها أن يحزنوا على فراقها، ويبثّوا ذلك الحزن في شعر رقيق.

من ذلك –مثلا- مرثيّة القاسم بن يوسف (المرزباني، 1982، صفحة 335) في قمريّ له فَقَدَه، حيث قال في أبيات منها: (الصولي، 1934، صفحة 193/ج1)

هَـلْ لامْـرِئٍ مِـنْ أمَـانِ *** مِـنْ رَيْـبِ هَـذا الزَّمَانِ

أَمْ هَـلْ تَـرَى نَاجِيًـا *** مِـنْ طَـوَارِقِ الحَـدَثَانِ

مَـا اثْنَـان يَجْتَمِعَـان *** إلّا سَـيَفْتَرِقَانِ

كَـان المُطَـوّقُ خَـدَنًا *** مِـنْ أكْـرَمِ الأَخْـدَانِ

وصَـاحِبًا وخَلِـيلاً *** مِـنْ خَـالِصِ الخِـلّانِ

سِـنِين سَـبْعًا وعَشْـرًا *** مَخْفُـورَةُ بثَمَـانِ

فَغَالَـهُ حَـادِثٌ مِـنْ *** حَـوَادِثِ الأَزْمَـانِ

أَمْسَـى المُطَـوَّقُ رَمْسًـا *** دَرِيجَـة الأَكْفَـانِ

مُسْـتَوْطِنًا دَارَ قَفْـرٍ *** مِـنْ عَـامِرِ الأَوْطَـانِ

ثم ينتقل للحديث عن صفاته وجمال هيئته، وصوته ونسبه قائلا:

كَـان المطـوّق إِنْسًـا *** للأَهْـلِ والجِيـرَانِ

مُغَـرّدًا فِى دُجَى اللَّيْـلِ *** مُؤذِّنًـا بـالأَذَانِ

وطَالَمَـا غَنَّـانِى *** مِـنْ مُطْـرِبِ الأَلْحَـانِ

تَنْمِيـه آبَـاءُ صِـدْقٍ *** لِمُحْصَـنَاتٍ هِجَـانِ

في مَغْـرَسٍ طَـابَ أَصْلاً *** مِـنْ طيّـبِ الأَغْصَـانِ

كَـأَنَّ عَيْنَيْـه يَـاقُو *** تَتَـانِ حَمْـرَاوَانِ

كَـأَنَّ رِجْلَيْـهِ مَصْـبُو *** غَتَـانِ مـن أُرْجُـوَانِ

ثمّ ينحو الشّاعر باللائمة على الذين عذلوه في كثرة بكائه عليه قائلا:

وَذِى سَـفَاهٍ لَحَـانِى *** لَـمْ يُعْنِـه مَـا عَنَـانِي

رَدَدْتُـه بِصَـغَارٍ *** وذِلَّـة وهَـوَان

يَلُـومُنِى وهْـوَ خِلْـوٌ *** لَـمْ يُشْجِهِ مـا شَـجَانِي

وللشّاعر كشاجم (الزركلي، 1980، صفحة 167/ج7)قصيدة رثائية في قمري –أيضا- صوّر فيها الفاجعة الأليمة التي ألمّت به لفقده، قال في أبيات منها:

غَدَرَ الزَّمَانُ وَجَارَ فِي أَحْكَامِهِ

والدَّهْرُ عَيْنُ الخَائِنِ الغَدَّارِ

وَرُزِئْتُ أَعْلاَقاً عَلَيَّ كَرِيْمَةً

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْضَى بِهَا أَوْطَارِي

وَفُجِعْتُ بِالْقُمْرِيِّ فَجْعَةَ ثَاكِلٍ

فَفَقَدْتُ مِنْهُ أَصْنَعَ السُّمَّارِ

وَمُطَوَّقٌ مِنْ صِبْغِ خِلْقَةِ رَبِّهِ

طَوْقَيْنِ خِلْتُهُمَا مِنَ النُّوَّارِ

وَلَطَالَمَا اسْتَغْنَيْتُ فِي غَلَسِ الدُّجَى

بِهَدِيْلِهِ عَنْ مُطْرِبِ الأَوْتَارِ

لَهْفَا عَلَى القُمْرِيِّ لَهْفاً دَائِمَاً

يَكْوِي الْحَشَى بِجَوًى كَلَذْعِ النَّارِ

وَلَقَدْ هَجَرْتُ الصَّبْرَ بَعْدَ فِرَاقِهِ

وَلَقَدْ مَزَجْتُ دَماً بِدَمْعٍ جَارَى
مَا كُنْتُ فِي الأَطْيَار إلاَّ وَاحِداً

هَيْهَاتَ أَوْدَى سَيِّدُ الأَطْيَارِ

وقد فُجِع أبو الفرج الأصفهاني بديكٍ عزيز على قلبه، فرثاه بقصيدة حوت أصدق العواطف و أنبلها، وبكاه بكاءً مريراً، حيث كان يعتبره فردا من العائلة، فكلما صاح ديكٌ في الجوار تذكَّر ديكه المفقود،ما يدلُّ على رُقِيّه ورقَّةِ قلبه، قال عنها ابن شاكر الكتبي:"وقد كتبت القصيدة بأسرها؛ لجودة وصفها، وإحكام رصفها، فإنها عذبة الألفاظ، بديعة المعاني، مطردة الأجزاء، متسقة القوافي". (عبد الجواد، 1968، صفحة 139)لذا أوردها كاملة في كتابه (عيون التواريخ) رغم طولها، وهذه أبيات منها: (الصفدي، الوافي بالوفيات، 2000، الصفحات 78-80/ج21)

خَطْبٌ طَرَقَتْ به أمْر طَرُوقٌ

فَظُّ الحُلُول عليَّ غَيْرُ شفيقِ

فكأنَّما نُوَبَ الزَّمان مُحِيطةٌ

بي رَاصِدَاتٌ لي بِكُلِّ طَرِيقِ

ذَهَبَتْ بِكُلِّ مُصَاحِبٍ ومُنَاسِبٍ

ومُوَافِقٍ ومُرَافِقٍ وصَدِيقِ

حَتَّى بِدِيكٍ كُنْتُ آلفُ قُرْبَهُ

حَسَنٌ إليَّ مِنَ الدُّيُوك رشيقِ

إلى أن يقول في قصيدته الطويلة هذه:

لَهْفِي عَلَيْكَ أبَا النَّذِير لَوْ أَنَّهُ

دَفْعُ المنَايا عَنْكَ لَهْفَ شَفِيقِ

وعَلَى شَمَائِلِكَ اللَّوَاتِي مَا سَمَتْ

حَتَّى ذَوَتْ مِنْ بَعْدِ حُسْنِ سُمُوقِ

وتَكَامَلَتْ جُمَلَ الجَمَال بِأَسْرِهَا

مُتَلَأْلِئَا ذا رَوْنَقٍ وبَرِيقِ

مِنْ حُمْرَةٍ في صُفْرَةٍ في خُضْرَةٍ

تَخَيُّلُهَا يُغْني عَن التَّحْقِيقِ

عَرضٌ يَجُلُّ عَن القِيَاسِ وجَوْهَرٌ

لَطُفَتْ مَعَانِيهِ عَنِ التَّدْقِيقِ

فالشاعر يصف لنا جمال ديكه وكمال صورته، وصفا دقيقا عجيبا، فريشه متلألئ يخطف الأبصار ببريقه، تمازجت ألوانه ما بين الحمرة والصفرة والخضرة.ثمّ يحدّثنا عن جمال صوته قائلا:

وكَأَنَّ مَجْرَى الصَّوْتِ مِنْكَ إذا نَبَتْ

وجَفَتْ عَنِ الأَسْمَاعِ بَحّ حُلُوقِ

يَزْقُو ويُصَفِّقُ بالجَنَاح كَمُنْتَشٍ

وَصَلَتْ يَدَاهُ النَّقْرَ بالتَّصْفِيقِ

أَبْكِي إذَا أَبْصَرْتُ رَبْعَك مُوحِشاً

بِتَحنُّنٍ وتَأَسُّفٍ وشَهِيقِ

ويَزِيدُني جَزَعًا لِفَقْدِكَ صَادِحٌ

في مَنْزِلٍ دَانٍ إليَّ لَصِيقِ

فَتَأَسُّفِي أَبَدًا عَلَيْكَ مُوَاصِلٌ

بِسَوَادِ لَيْلٍ أو بَيَاضِ شُرُوقِ

صَبراً لفَقْدِك لا قِلىً لَكَ بَلْ كَمَا

صَبَرَ الأسيرُ لِشِدَّةٍ ومَضِيقِ

لا تَبْعُدَنَّ وإِنْ نَأَتْ بِكَ نِيّةٌ

في منزلٍ نَاءِ المَحَلِّ سَحِيقِ

فهذه الأبيات تبيّن مدى اهتمام الشاعر بهذا الديك، ومدى حبّه له، حيث انعقدت بينهما صلة قوية، فهو صاحبه ورفيقه وأليفه، ومؤنس وحشته، ومذهب الغمّ عن قلبه بصوته الشجيّ، والذي يزيد بكاءه خلوّ مكانه منه. وما من شك في أن الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي قد أصاب عندما وصفها بأنها الدرة اليتيمة. (عبد الجواد، 1968، صفحة 164)

وإذا اتّجهنا إلى شعراء الأندلس، فإنّنا نجد كمّا لا بأس به من مراثي الحيوان، فقد " عبّر الشّعراء من خلال هذه المراثي عن مشاعرهم الصافية اتّجاه هذه المخلوقات الوديعة بعد موتها، وما يُخلّفُه فَقْدها من حزن عميق، وأسى بالغ في نفس الشاعر، ولدى أهل بيته وجيرانه". (شيخ موسى، 1984، صفحة 207)
من هذه المراثي ما نجده لابن المظفر (المقري، د/ت، صفحة 736/ج2)يرثي كلباً من قصيدة قال فيها: (الأصفهاني ا.، 1971، صفحة 1492/ج2)
كَان ذَا أُلْفَةٍ بِنا وحِفَاظ

لَمْ يَكُنْ فِيه خصْلَةٌ مَذْمُومَهْ

لَمْ يَزَلْ دائماً يُبَصْبِصُ للضَّيْ

ـفِ فَاعْتَدّ ذاك مِنْه غَنِيمَهْ

لو يُبَاحُ الفِدَاءُ فَدَيْناهُ بالنَّفْس

وإِنْ لَمْ تَكُنْ له النَّفْسُ قِيمَهْ

لَو تَأَمَّلْتَه لَرَاقَكَ حُسْناً

وتَمَنَّيْتَ أن تَكُونَ نَدِيمَهْ

إنّ هَذَا الزَّمانَ شِيمَتُه الغَدْرُ

قَدِيماً والغَدْرُ أَقْبَحُ شِيمَهْ

ولأبي محمد المصري (الزركلي، 1980، صفحة 85/ج4)مرثية في مُهْرٍ له أكله الذّئب قال فيها: (الشنتريني، 1419هـ، صفحة 210/م4)
يا وَيْحَ قَلْبي مِنْ دَهْرٍ تَعَمّدَنِي

بالنَّائِبَات فَلاَذَتْ بي يَدُ النُّوَبِ

حَتّى بِمُهْرٍ هَضِيمِ الكَشْحِ ذي هَيَفٍ

كَأنّ أَجْزَاءَهُ جَاْب على نَسَبِ

يا يُوسُف الخَيْلِ يا مَقْتُول إخْوَتِهِ

قَلْبِي لِفَقْدِكَ بين الحَرْبِ والحَرْبِ

إنْ كانَ يَعْقُوبُ لم يَقْنَعْ بكَذِبِهِمْ

إنّي لأَقْنَعُ مِنْهم بالدَّمِ الكَذِبِ

فالشاعر يصف لنا في هذه المقطوعة مهره الذي كان يملأ عليه حياته، ففجعه الدّهر به، فيَدُ النّوائب تنزل به المصائب تِباعا.

5. **خاتمة :** وفي الأخير نظن أنّ ما أوردناه من نصوص يلقي بعض الضوء على رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي، و من النتائج التي استخلصناها نذكر ما يلي:

- ✓ فنّ رثاء الحيوان فريد في بابه، ويُعدّ من أروع ما جادت به قرائح الشعراء العباسيين، لما فيه من عواطف إنسانية صادقة.
- ✓ لم تعد المراثي مقصورة على بني البشر فقط، وإنّما بات للمستأنس من الحيوان نصيب من شعر الرثّاء، فهذا شاعر يرثي فرسه، وثان يرثي عنزة، وآخر يرثي

حماراً، ورابع يرثي كلباً، ويبدو أن أكثر المراثي فيما ألف في الحيوان كانت في القطط، والكلاب، والطيور.

- ✓ وجدنا لرثاء الحيوانات والطيور نصوصا نادرة في شعر العصر الجاهلي، فجُلُّ النّصوص التي توفَّرَت في هذا العصر تناولت هلاك الحيوان دون التعرض لرثاءه. فبدا في العصر العباسي كفن جديد لا عهد للشعراء به.
- ✓ استهلّ الشّعراء مراثيهم بالبكاء والشّكوى ممّا أصابهم، وذكروا فيها غدر الزّمان ونوائبه، وأكثروا من استعمال أسلوب النّداء المناسب لبثّ اللوعة والحزن والأسى. وقد أورد بعض الشّعراء في رثائهم شيئا من الحكمة والموعظة، وذكروا الموت والحياة، والقضاء والقدر، ووجوب التحلي بالصّبر عند نزول البلاء.
- ✓ إنّ الشاعر في رثائه للإنسان يذكر صفاته الخُلُقيّة والنّفسيّة، لكنّه في رثائه للحيوان يذكر الصفات الخَلْقيّة ككمال الهيئة، وحُسن الصّورة، وجمال الصّوت. وقد رأينا في بعض المقطوعات أنّ الشّاعر يرثي حيوانه المستأنس بالصّفات التي يُرثى بها الإنسان عادة.
- ✓ لعلّ الذي دفع الشّعراء إلى رثاء الحيوان، ما جُبِلوا عليه من عواطف ومشاعر الرّحمة اتّجاه الحيوانات المستأنسة. فقد روي عن النبي(ρ)أنّه قال: (ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ).

6- <u>المصادر والمراجع:</u> الكتب:

- ابن خلكان ,أ) .دت .(.وفيات الأعيان .بولاق القاهرة : المطبعة الأميرية.
- أبو منصور الثعالبي. (1983). يتمة الدهر في محاسن أهل العصر. (ت: مفيد قمحية،) بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبي بكر الصولي. (1934). كتاب الأوراق، قسم أخبار الشعراء. مصر: مطبعة الصاوي.
- الأصفهاني ,ا .(1971) .خريدة القصر وجريدة العصر .)ت .أ .آذرنوش (تونس :الدار التونسية للنشر.
- الأصفهاني ,أ .ا .(2013) .ديوان شعر أبي القاسم بن أحمد أبي العلاء الأصفهاني) .ت .ح .قارة ,مصر :دار الوفاء للطباعة والنشر.
- الثعالبي ,أ .م .د/ت .(.يتيمة الدهر .بيروت :دار الكتب العلمية.
- الجراوي ,أ .ا .(1991) .الحماسة المغربية) .ت .م .الداية , لبنان :دار الفكر المعاصر.
- حسين الزَّوْزَني. (2002). شرح المعلقات السبع. دار إحياء التراث العربي.
- حسين جمعة. (1998). الرثاء في الجاهلية والإسلام. سوريا: دار معد للطباعة والنشر.
- الحنبلي ,ا .ا .(2012) .شذرات الذهب في أخبار من ذهب .بيروت :دار الكتب العلمية.
- ديوان عامر بن طفيل) .(1979) .ر .أ .العباس ,بيروت : دار صادر.

- الذهبي ,ش .ا .(2010) .سير أعلام النبلاء) .ت .م .عطا (لبنان :دار الكتب العلمية.
- الزركلي ,خ .ا .(1980) .الأعلام .بيروت :دار العلم للملايين.
- سوداني، عبد الله عبد الرحيم. (1999). رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي. أبو ظبي: المجمع الثقافي.
- الشنتريني ,ا .ب1419) .هـ .(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) .ت .س .البدري ,بيروت :دار الكتب العلمية.
- الشنتمري ,أ .ا .(2001) .أشعار الشعراء الستة الجاهليين .Vol)ج .(2بيروت :دار الكتب العلمية.
- الشنطي ,م .ص .(1992) .في الأدب العربي القديم : عصوره واتّجاهاته وتطوره .مصر، :دار الأندلس للنشر والتوزيع.
- الشنقيطي ,أ .(2012) .شرح المعلقات العشر .بيروت :دار الكتب العلمية.
- الصفدي ,ص .ا .(1911) .نَكْت الهميان في نُكَت العُميان .مصر :المطبعة الجمالية.
- الصفدي ,ص .ا .(2000) .الوافي بالوفيات) .ت .أ . مصطفى ,بيروت :دار إحياء التراث.
- الضبي ,ا .(1998) .ديوان المتلمس الضبي .بيروت :دار صادر.
- الطباع ,ش .ع .(2016) .ديوان الخنساء .بيروت :دار الأرقم.
- عبد الجواد ,م .(1968) .نقلا عن :أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني :دراسة وتحليل لأزهى العصور الإسلامية .القاهرة :دار المعارف.
- عبد اللطيف عاشور. (2000). موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي. القاهرة: مكتبة القرآن.
- علي ,ع .ا .(2008) .الرثاء في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري .لبنان :دار القارئ.
- عمر فروخ. (1981). تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار العلم للملايين.
- العمري ,ا .ف 1423) .هـ .(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .أبو ظبي :المجمع الثقافي.
- المبرد ,أ .ا .(1937) .الكامل في اللغة والآداب والنحو التصريف .Vol)ج (2)ت .ز .مبارك ,مصر :مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- محمد مصطفى هدارة. (1963). اتّجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف.
- المرزباني ,م .أ .(1982) .معجم الشعراء .بيروت :دار الكتب العلمية.
- مروة ,م .ر .(1990) .عبد الله بن المعتز خليفة يوم وليلة . بيروت :دار الكتب العلمية.
- المفضل الضبي. (1998). المفضليات. (عمر فاروق الطباع،) بيروت: دار الأرقم.
- المقري ,أ) .د/ت .(نفح الطيب، ت :إحسان عباس . بيروت :دار صادر.
- الموافي ,م .ع .(1983) .حركة التجديد في الشعر العباسي . القاهرة :مطبعة التقدم.
- نصرت ,ع .ا .(1976) .الصورة الفنيّة في الشّعر الجاهلي في ضوء النّقد الحديث .عمان :مكتبة الأقصى.

- النهرواني ,ا .ا .(1974) .ديوان ابن العلاف) .ت .ص .
  رديف ,بغداد :مطبعة الجامعة.

- **المجلات**:

- البواب ,ع .ح ,1997) .أبريل .(أبو بكر بن العلاف وقصيدته في الهر .مجلة الفيصل الثقافية)عدد ,(246 p. 38 .وما بعدها.

- رضا محمد أحمد. (2019). رثاء الحيوان والطير في شعر القاسم بن يوسف بين الرمزية والواقعية. مجلة بحوث كلية الآداب، 30(119)، الصفحات 365-418.

- شيخ موسى ,م ,1984) .جويلية .(الطّير والحيوان في الشعر العربي .مجلة المناهل.(30)

- صلاح الدين المنجد. (مارس, 1945). أصدقاء الحيوان. مجلة الثقافة(326)، صفحة 21.

- ناول ,ع .ا .(1992) .، مراثي الطير والحيوان في الشعر العربي، مجلة الفيصل الثقافية)عدد .p ,(187ص 112وما بعده.